أهل الفضائل

تأملات في خطبة المتقين (١٩٣)

الشيخ محمد حسن الحبيب

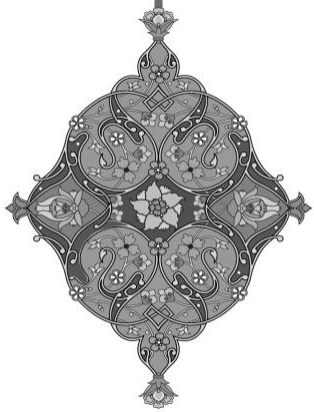

٦ ووقفوا أسماعهم

ووقفوا أسماعهم

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

﴿ وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى اَلْعِلْمِ اَلنَّافِعِ لَهُمْ ﴾.

الوقف هو: السكون بعد الحركة، ومنه الحبس. فالوقف حبس لمنفعة مخصوصة، مثل وقف الأرض للمسجد، والماء للمصلين، وهنا وقف السمع لخصوص العلم النافع.

:: **تدفق المعلومة**

أفرزت ثورة الاتصالات تدفقا هائلا في المعلومة بشتى أنواعها وأصنافها ومن مختلف الأماكن في العالم، وقد كان للمسموع كالمذياع، والمرئي نصيب وافر في ذلك. فمثلا بلغ عدد القنوات الفضائية حتى العام ٢٠١٤م ١٣٠٠ قناة موجهة إلى المنطقة العربية، الأغلب الأعم يتولاه القطاع الخاص، وقد كشف التقرير السنوي حول البث الفضائي العربي لعام ٢٠١٤ الذي أصدره اتحاد إذاعات الدول العربية ASBU عن أن ١٦٥ قناة تتولى بثها ٢٩ هيئة من القطاع العام، و١١٢٩ قناة تتولى بثها ٧٢٩ هيئة من القطاع الخاص، كما كشف التقرير عن أن القنوات التي تبث بالنظام المفتوح بلغت ١٠٢٦ قناة بنسبة قاربت ٨٠%، مقابل ٢٦٨ قناة فقط تبث بالنظام المشفر.

وذكر التقرير أن قنوات الدراما من أفلام ومسلسلات بلغت ١٥٢ قناة، والقنوات الغنائية المختصة ببث الكليبات وبرامج المنوعات والسهرات الغنائية بلغت ١٢٤ قناة. [١]

ومعلوم أن هذه القنوات تحمل الغث والسمين، علما أنها ليست الوحيدة التي تعمل على بث المعلومة وإنما هناك وسائل متعددة، وكلها تعمل على التأثير في حياة الإنسان وتغييره بما يتوافق مع الرسالة التي تتبناها المجموعة التي تدير حركة التدفق ووسائله.

وليس ذلك وحده بل الوسائل التقليدية في المجتمع هي الأخرى لها أثر بالغ كالغيبة والنميمة والبهتان والإشاعة والتي تتعاظم في التجمعات الشللية المحبطة واليائسة أو الشريرة. وهو المعبر عنه في الأدعية والروايات بمجالس البطالين.

وهذا يفرض على الإنسان المزيد من أخذ الحيطة والحذر في التعاطي مع نعمة السمع لأنها المنفذ الذي يؤثر عليه في مختلف الجوانب خطيرها وحقيرها.

قال الإمام الباقر عليه السلام: من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق يؤدي عن الله عز وجل فقد عبد الله وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان. (٢)

وهنا ينبغي أن نقف على علمين مضافا إلى العلم النافع حتى نكون كالمتقين الذين وقفوا أسماعهم على النافع من العلم مبتعدين عن الضار من المسموع بل وغير النافع أيضا.

:: المسموع الذي لا يضر ولا ينفع

بسبب هذا التدفق الهائل ومن خلال الوسائل التقليدية أو الحديثة تمر على مسامع الإنسان أمور الأغلب منها لا تعنيه ولا تنفعه وقد يشتغل بأخبار أو علوم لا تعني شخصه أو واقع مجتمعه وأمته مما يفوت على نفسه الفرصة لتعلم المهم والأهم والاستماع اليهما.

وفي هذا الباب روي عن أبي الحسن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل فقال ما هذا؟ فقيل علامة. قال: وما العلامة؟ قالوا أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية و بالأشعار العربية. فقال النبي صلى الله عليه وآله:

ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه. ثم قال عليه السلام: إنما العلم ثلاثة آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة و ما خلاهن هو فضل.[٣]

:: **المسموع الضار**

الغيبة والنميمة، والغناء واللهو، والكفر والضلال كلها تندرج تحت عنوان الضار الذي يجب على الإنسان الوقاية منه والابتعاد عنه.

والأحكام الشرعية التي قننت حرمة التعاطي مع هذه الأمور أرادت صيانة الإنسان من الانحراف وابعاده عن الرذيلة والضلال والفسق والإلحاد والزندقة.

روى مسعدة بن زياد قال كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فقال له رجل: بأبي أنت وأمي إنني أدخل كنيفا لي ولي جيران عندهم جوار يتغنين ويضربن بالعود فربما أطلت الجلوس استماعا مني لهن! فقال: لا تفعل. فقال الرجل: والله ما آتيهن إنما هو سماع أسمعه بأذني. فقال: لله أنت أما سمعت الله عز وجل يقول (إن السمع و البصر و الفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا). فقال: بلى والله لكأني لم أسمع بهذه الآية من كتاب الله من أعجمي ولا عربي لا جرم أنني لا أعود إن شاءَ الله وأني أستغفر الله. فقال له: قم فاغتسِل وسل ما بدا لك فإنك كنت مقيما على أمر عظيم ما كان أسوأ حالك لو مت على ذلك احمد الله وسله التوبة من كل ما يكره فإنه لا يكره إلا كل قبيح والقبيح دعه لأهله فإن لكل أهلا.[٤]

ونقل عن الإمام الشيرازي رضوان الله عليه أنه كان يقول لبعض زواره: المؤمن لا يستمع الغناء ولكنه قد يتعرض للغيبة فيستمع إليها، وقد

يحمله الفضول للاستماع إلى النميمة ويدخل في تفاصيلها خصوصا إذا كان موضوع النميمة مختص بالمستمع. وهذا يوجب على الإنسان المؤمن كثير الحذر كي لا يقع في حبائل الشيطان لأن هذه وأمثاله من حبائله عليه لعائن الله.

:: **المسموع النافع**

الإمام عليه السلام يصف المتقين بأنهم وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ويدعونا إلى الاقتداء بهم والسير بسيرتهم، وهنا ينبغي الالتفات إلى الآتي:

أولا: العلم كثير، ومن كثرته لا يستوعبه عمرنا القصير خصوصا في زماننا هذا حيث ازدادت العلوم وتكاثرت وتعاظمت فلا بد أن يخضع اختياره إلى قانون النفع والأولوية، بل يمكن الاكتفاء بالأول لأن النافع من العلم لا يكون كذلك إلا إذا لوحظ فيه معالجات الواقع أو تنميته مع مراعات الأولى.

روى أبو البختري قال: صحب سلمان، رضي الله تعالى عنه، رجل من بني عبس، قال: فشرب من دجلة شربة، فقال له سلمان: عد فاشرب، قال: قد رويت، قال: أترى شربتك هذه نقصت منها؟ قال: وما ينقص منها شربة شربتها، قال: كذلك العلم لا ينقص، فخذ من العلم ما ينفعك. (٥)

وعن حفص بن عمر السعدي عن عمه: قال سلمان لحذيفة: يا أخا بني عبس، إن العلم كثير، والعمر قصير، فخذ من العلم ما تحتاج إليه في أمر دينك، ودع ما سواه، فلا تعاند. (٦)

ثانيا: التفكر والتدبر والتأمل فيما يقال وينقل لأن فيه الحق وفيه الباطل، وفيه الخطأ وفيه الصواب ولتحقيق النافع المطلوب في العلم لا بد أن يقبل مما يسمع ويرد وفقا لبصائر الوحي وهدي العقل.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل. (٧)

ثالثا: التتلمذ والتذاكر

حثت الشريعة الغراء أبنائها على التعلم والتفقه حتى أن الإمام الصادق على ما روى إسحاق بن عمار كان يقول: ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام. (٨)

والتعلم والتفقه بحاجة إلى التتلمذ على أيدي العلماء العارفين بالعلوم، والتذاكر بين المؤمنين في مجالسهم ومساجدهم والأماكن التي يجتمعون فيها.

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: إن الذي يعلم العلم منكم له أجر مثل أجر المتعلم وله الفضل عليه فتعلموا العلم من حملة العلم وعلموه إخوانكم كما علمكموه العلماءُ. (٩)

وقال النبي صلى الله عليه وآله: من غدا إلى المسجد لا يريد إلا ليتعلم خيرا أو ليعلمه كان له أجر معتمر تام العمرة ومن راح إلى المسجد لا يريد إلا ليتعلم خيرا أو ليعلمه فله أجر حاج تام الحجة. (١٠)

---

(١) صحيفة الرياض، الصادرة يوم السبت ٩ جمادى الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٨ فبراير ٢٠١٥م - العدد ١٧٠٥٠.
(٢) الكافي ج ٦ ص ٤٣٤.
(٣) بحار الأنوار ج ١ ص ٢١١.
(٤) الكافي ج ٦ ص ٤٣٢.
(٥) حلية الأولياء ج ١ ص ١٨٨.
(٦) حلية الأولياء ج ١ ص ١٨٩.
(٧) نهج البلاغة ص ٤٨٥.
(٨) بحار الأنوار ج ١ ص ٢١٣.
(٩) الكافي ج ١ ص ٣٥.
(١٠) بحار الأنوار ج ١ ص ١٨٥.